الفصل الرّابع

من مظاهر الدّرس اللّغويّ في المدينة

وضعت البذرة الأولى للدرس اللغويّ بعامة والنحويّ بخاصة في المدينة - كما تقدم - أيام الصحابة - رضوان الله عليهم - وظهرت بوادر هذا الدرس في الإشارات والتنبيهات والأنظار اللغوية المتفرقة المعزوة لبعض المهتمين بأمر اللغة، فأصبحت المدينة فيما بعد أحد المراكز اللغوية المهمة، فشارك لغويوها ونحاتها في القرنين الأول والثاني في تحديد مفاهيم النحو ووضع أسسه.

وقد وقفنا في الفصل الثالث على جملة من أعلام الدرس اللغويّ في المدينة، ونحاول في هذا الفصل أن نقف على ما يتاح لنا من مظاهر ذلك الدرس في تلك البيئة.

ومع إيماننا بأنه يتعذر الوقوف على حقيقة الحركة اللغوية في المدينة لضياع كثير مما أثر عن علمائها بالإضافة إلى ضياع كل ما ألفوه في تلك الحقبة المتقدمة، للأسباب السالف ذكرها، ولأن النحاة المشهورين الذين عرفناهم في القرنين الثاني والثالث "لا يحفلون بنسبة الآراء النحوية إلى أصحابها في كل موضع، وهذا يجعلك تجزم بأن كثيراً من الآراء النحوية التي يمكن أن تظنها للفراء وسيبويه والكسائي ليست لهم بل نقلوها عن غيرهم، ولكنها في كتبهم مغفلة أو معزوة إلى شيوخهم الأدنين، ولعل في هذا شيئا غير قليل من تراث تلامذة أبي الأسود نقله إليهم الحضرميّ وعيسى وأبو عمرو"[1] ومن تراث نحاة المدينة، وهم أصحاب فضل لا ينكر في وضع نواة النحو، وتأسيس بعض قواعده، والمشاركة في بعض مسائله.

وعلى الرغم من ذلك فإنه من الممكن جمع بعض الشذرات اللغوية المتفرقة مما تجود به بعض المصادر، أو مما يستنبط من قراءات بعضهم وتوجيهاتها.

وقد تبين لنا بعد البحث والتنقيب أن لنحاة المدينة مؤلفات في اللغة والنحو، وأن لهم آراءهم النحوية الخاصة، ومصطلحاتهم التي كانت تدور في بيئتهم، وأن لهم مجالسهم اللغوية الخاصة.

من مؤلفات المدنيين في علوم اللغة

كانت الملحوظات النحوية والإرشادات والتنبيهات والأنظار تصدر مدّة من الزمن عن جماعة من المهتمين بالعربية في المدينة مشافهة، وتنتقل عن طريق الرواية والسماع، ولم تكن فكرة تأليف الكتب قد تبلورت في أذهانهم.

ولما تطورت العلوم في نهاية القرن الأوّل وبداية القرن الثاني، وأخذت تتكوّن معالمها كالتفسير والحديث والعربية بدأت فكرة تدوين ملحوظاتهم أو معارفهم في أوراق لحفظها، ولم تلبث أن تحولت هذه الفكرة إلى نوع من التأليف عند بعض العلماء.

وكان نحاة المدينة ولغويوها من السابقين إلى تأليف الكتب النحوية، وهي إن ضاعت من يد الزمن فليس ذلك لها وحدها، بل ضاعت كتب عيسى بن عمر ويونس بن حبيب والرؤاسيّ وغيرهم.

ولا نكاد نعرف عن مؤلفاتهم في اللغة والنحو إلا الشيء القليل، ومن هذا القليل ما وصل إلينا، ومنه ما فُقِد ولا نكاد نعرف عنه شيء، ومما وصل إلينا رسالة صغيرة في لغات القرآن، برواية ابن حسنون بإسناده إلى ابن عباس، وقد نشرها الدكتور صلاح الدين المنجد.

والرسالة طريقة في بابها مرتبة على سور القرآن، يورد فيها مؤلفها ما في كل سورة من لغات عربية أو ألفاظ معربة لأمم مجاورة كالفرس والروم والأنباط السريان والعبرانيين.

وهو من هذه الناحية - كما يقول المحقق - يبين لنا مصادر القرآن اللغوية، ويلقي الضوء على لغات القبائل قبيل الإسلام، ويحدد نسبة ما أخذ القرآن من ألفاظ كل قبيلة من تلك القبائل، ثم من كل أمة إن صح أن بعض الألفاظ فيه أعجمية[2].

وقد شك بعض الباحثين في نسبة هذا الكتاب إلى ابن عباس، وبسط القول فيه[3].

ولابن عباس صحيفة في تفسير القرآن الكريم رواها عنه علي بن أبي طلحة، فيها من اللغة الشيء الكثير يتمثل في تفسير الغريب.

وقد كانت هذه الصحيفة موضع تقدير العلماء وعنايتهم، إذ قال عنها أحمد ابن حنبل: "بمصر صحيفة في التفسير رواها علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً"[4].

وذكر السيوطي أن هذه الصحيفة ثابتة عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة، وقد اعتمد عليها البخاري في صحيحه مرتباً على السور[5].

ومن الواضح أنّ ابن عباس لم يكتب هذه الصحيفة في كتاب، وإنما نقلت عنه مشافهة، ثم

---

١ المفصل في تاريخ النحو العربي ١٢٤.

٢ ينظر: اللغات في القرآن ٥، ٦ (مقدمة المحقق).

٣ ينظر: ابن عباس مؤسس علوم العربية ٩٠- ٩٢.

٤ الإتقان ٢٢٣/٢.

٥ نفسه ١٥٠/١.

دّوّنت فيما بعد، ومنها نسخة كانت بحوزة أبي طلحة كاتب الليث رواها عن معاوية بن أبي طلحة، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهي عند الإمام البخاري عن أبي صالح، وقد اعتمد عليها كثيراً في صحيحه كما أسلفت، وهي عند الطبري وابن أبى حاتم وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبي صالح[٦].

واهتم بأمر هذه الصحيفة بعض المعاصرين كالدكتور محمد حسين هيكل، والشيخ محمد فؤاد عبد الباقي، فكتب عنها الأول كلمة ضافية[٧]، وأخرجها الثاني في كتاب سماه: "معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاريّ" وأكثر ما فيه من هذه الصحيفة.

ويلحق بذلك ما روي عن ابن عباس مما دوّن بعده في مسائل عرفت بمسائل نافع بن الأزرقّ،وهي مسائل في تفسير غريب القرآن بشواهد من شعر العرب، وهي أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفرادا منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس، وأخرج أبو بكر الأنباري قطعة منها في كتابه "إيضاح الوقف والابتداء".

وأخرج الطبراني في معجمه الكبير جزءاً منها من طريق جويبر عن الضحّاك بن مزاحم، ورواها السيوطي كاملة في كتابه "الإتقان".

أما ما فقد من تلك المؤلفات فلا نكاد نعرف عنه شيئاً، إلا ما ورد في إشارتين أحدهما في النحو لعليّ الجمل، الذي ذكره أبو الطيب اللغوي ووصفه بأنه "لم يكن شيئاً"[٨] ووصفه القفطي بأنه "لم يخلّ شيئا"[٩]وقد ذكرت فيما مضى أن التحريف في هذين النصين وارد.

ومهما يكن من أمر هذا الكتاب فقد امتد أثره إلى الأخفش وهو من أعلام النحو في البصرة، إذ قال تلميذه أبو حاتم السجستاني في كتابه القراءات حيث ذكر القراء والعلماء: "وأظن الأخفش سعيد بن مسعدة وضع كتابه في النحو من كتاب الجمل"[١٠].

وما قاله السجستاني يدل على أن الكتاب له مكانة رفيعة، وأنه أثار انتباه العلماء، وأن أثره امتدّ إلى خارج المدينة، لما كان يحويه من أصول النحو ومسائله، وإحسان أبي حاتم الظن بهذا الكتاب شهادة عالية القيمة من عالم مشهور لعالم مغمور.

والكتاب الآخر في اللغة، أشار إليه أبو الطّيّب اللغويّ - أيضاً - في ترجمته لأبي عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤ هـ) قال: "وأما كتَابه المترجم بالغريب المصنف فإنه اعتمد فيه على كتاب عمله رجل من بني هاشم جمعه بنفسه"[١١].

والراجح أن هذا الرجل كان من أهل المدينة أو مكة مقر سكنى بني هاشم كما يقول الدكتور هادي عطية[١٢].

وإن ثبت هذا فإنه يدل على اهتمام أهل الحجاز بالتأليف في غريب اللغة، ذلك العلم الذي فتح بابه لهم ابن عباس.

من المسائل النّحويّة

ضاع الكثير من نحو المدنيين، ولم يصل إلينا منه إلا الشيء اليسير جداً، ومنه ما أشارت إليه بعض المصادر النحوية ك "الكتاب" لسيبويه، و"معاني القرآن" للفراء، و"الارتشاف" لأبي حيان، فمما يسّر الله جمعه:

١- تابع المنادى:

يُعطى تابع المنادي ما يستحق من الإعراب إذا كان منادى مستقلا، أي البناء أو النصب، وذلك في التوكيد والبدل وعطف البيان وعطف النسق المجرد من أل، لأن البدل في نية تكرار العامل، والعطف كالنائب عن العامل، تقول في التوكيد: يا بكر نفسَه، ويا تميمُ كلَّهم، ويا خالدُ أبا الوليد، بنصب التابع ؛ لأنه مضاف.

وتقول: يا زيد بشرُ، بالضم للبناء، ويا صالحُ وعليٌّ بالضم أيضا[١٣].

وإذا وصف المضاف المنادى بمضاف مثله أو بمفرد فالوجه النصب، قال ابن السراج: "اعلم أن المضاف إذا وصفته بمفرد ومضاف مثله لم يكن نعته إلا نصباً؛ لأنك إن حملته على اللفظ فهو نصب والموضع موضع نصب، فلا يزال ما كان على أصله إلى غيره، وذلك نحو قولك: يا عبدَ الله العاقلَ، و يا غلامنا الطويلَ، والبدل يقوم مقام المبدل منه، تقول: يا أخانا زيد أقبل، فإن لم ترد البدل وأردت البيان، قلت: يا أخانا زيداً أقبل، لأن البيان يجري مجرى النعت"[١٤].

والرفع في قولك: يا أخانا زيدٌ هو قول أهل المدينة فيما حكاه سيبويه عن الخليل في قوله:

---

٦ ينظر: فتح الباري ٣٣٢/٨.

٧ ينظر: معجم غريب القرآن مستخرجاً من صحيح البخاري (المقدمة).

٨ مراتب النحويين ١٥٨.

٩ إنباه الرواة ٣٨/٢.

١٠ طبقات النحويين واللغويين ٧٣، ومراتب النحويين ١٥٨ ، وإنباه الرواة ٣٨/٢، ١٧٢.

١١ مراتب النحويين ١٤٨.

١٢ نشأة الدراسات النحوية واللغوية في اليمن ٢٦.

١٣ ينظر: الكتاب ١٨٤/٣، ١٨٥، ٢٠٥، والأصول ١/ ٣٤٢، ٣٤٣.

١٤ الأصول ٣٤٣/١.

"قلتَ: أرأيت قول العرب: يا أخانا زيدا أقبل، قال: عطفوه على هذا المنصوب فصار نصباً مثله، وهو الأصل؛ لأنه منصوب في موضع نصب، وقال قوم: يا أخانا زيدٌ.
وقد زعم يونس أن أبا عمرو كان يقوله، وهو قول أهل المدينة، قال: هذا بمنزلة قولنا يا زيد، كما كان قوله يا زيد أخانا بمنزلة يا أخانا، فيحمل وصف المضاف إذا كان مفرداً بمنزلته إذا كان منادى"[١٥].

وما عزاه سيبويه للمدنيين مثال نحوي، وليس قراءة قرآنية حتى يظن أن سيبويه كان يشير إلى قراءةٍ لنافع أو غيره من قراء المدينة.

٢- الفصل بين المضاف والمضاف إليه:

لا يجوز الفصل بين المتضايفين عند كثير من النحويين إلا في الشعر، وأجاز بعضهم الفصل بينهما في مواضع منها أن يكون المضاف مصدراً والمضاف إليه فاعله والفاصل مفعول به أو ظرف.

فالأول كقراءة ابن عامر: **{وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}**[١٦].

والثاني كقولك: تَرْكُ يوماً نفسِك وهواها، سعي لها في رداها.

وللمدنيين رأي في هذه المسألة أورده شيخ نحاة الكوفة الفراء في قوله: "وليس قول من قال **{مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ}**[١٧] ولا **{زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ}** بشيءٍ ، وقد فُسّر ذلك.

ونحويوا أهل المدينة ينشدون قوله:

فَزَجَجْتُهَا مُتَمَكِّنا زَجَّ القَلُوصَ أبي مَزادَة[١٨]

قال الفراء: باطل، والصواب:

زَجَّ القَلُوصِ أَبُو مَزادَة "[١٩]

وقال الفراء في موضع آخر في توجيه قراءة ابن عامر: "وليس قول من قال: إنما أرادوا مثل قول الشاعر:

فَزَجَجْتُهَا مُتَمَكِّنا زَجَّ القَلُوصَ أبي مَزادَة

بشيء، وهذا مما كان يقوله نحويوا أهل الحجاز، ولم نجد مثله في العربية"[٢٠].

وتدل عبارة الفرّاء "وهذا مما كان يقوله نحويوا أهل الحجاز" على أمور، منها: قِدَم هؤلاء النحاة، وأنهم جماعة، وأنهم يتفقون في المذهب النحويّ.

وذكر ابن يعيش[٢١] أن الأخفش أنشد هذا الشاهد، وقيل: إنه زاده في حواشي الكتاب لسيبويه فأدخله الناسخ في بعض النسخ حتى شرحه الأعلم[٢٢] ، فهل أخذه الأخفش من كتاب أحد هؤلاء المدنيين، وهو عليّ الجمل، كما أخذ عنه: الزيت رطلان بدرهم؟ إن صح ذلك.

وذكر ابن يعيش - أيضاً - أن "ابن كيسان قد نقل عن بعض النحويين أنه يجوز أن نفرق بين المضاف والمضاف إليه إذا جاز أن يسكت عن الأول منهما"[٢٣] فمن هؤلاء النحاة، هل هم المدنيون أم الكوفيون؟ ليس في المصادر التي بين أيدينا ما يعين على الإجابة عن هذا السؤال.

وقد احتج بعض الكوفيين - فيما بعد - بهذا البيت وجعلوه من شواهدهم في جواز الفصل بين المضاف والمضاف إليه، فيما أورده أبو البركات الأنباريّ في مسائل الخلاف[٢٤] على الرغم من اعتراض الفراء على هذا الشاهد.

ويبدو أن البغدادي أراد أن ينتصر للبصريين بالطعن في قائل هذا البيت فعزاه "لبعض المدنيين المولدين، فلا يكون فيه حجة"[٢٥].

وبالعودة إلى عبارتي الفراء التي قال فيها: "ونحويوا أهل المدينة ينشدون..."، و"وهذا مما كان يقوله نحويوا أهل الحجاز" يتبين - كما أسلفنا - قدم هؤلاء النحاة، وإجماعهم على هذا الشاهد، وشهرته عندهم، ويمكن أن يستنبط من عبارة الفراء "وهذا مما كان يقوله.." التي قالها في أواخر القرن الثاني - كما نعلم - أن هؤلاء النحاة كانوا يقولون ذلك منذ زمن مضى نقدره بنحو خمسين سنة أو يزيد، وهو ما يوافق زمن الفصاحة الذي حدد بمنتصف القرن الثاني في الحواضر ونهاية القرن الرابع في البوادي، فهل يجوز للبغدادي أن يطعن في حُجِّيّة البيت؟.

---

١٥ الكتاب ٢/ ١٨٥.
١٦ سورة الأنعام: الآية ١٣٧.
١٧ سورة إبراهيم: الآية ٤٧.
١٨ معاني القرآن ٨١/٢.
١٩ البيت من مجزوء الكامل، وهو بلا نسبة في مجالس ثعلب ١٢٥، والخصائص ٤٠٦/٢، والإنصاف ٤٢٧/٢، وشرح المفصل لابن يعيش ١٨٩/٣، والمقرب ٥٤/١، والخزانة ٤١٥/٤.
٢٠ معاني القرآن ٣٥٨/١.
٢١ ينظر: شرح المفصل ٢٢/٣.
٢٢ ينظر: تحصيل عين الذهب ١٤٥، والخزانة ٤١٦/٤.
٢٣ شرح المفصل ٢٣/٣.
٢٤ ينظر: الإنصاف ٤٢٧/٢.
٢٥ الخزانة ٤١٥/٤.

ويقوي مذهب المدنيين قراءة ابن عامر في آية المائدة المتقدمة، وهي قراءة سبعية متواترة، لا يجوز الطعن فيها، وقد قرأ بعض السلف **{مُخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلِهِ}**[٣٦] ، بالإضافة إلى جملة من الشواهد الشعرية[٣٧].

ولورود ذلك في القرآن اقترح الدكتور مكي الأنصاريّ أن تعدل القاعدة التي ذكرها البصريون، فقال: يجوز الفصل بين المتضايفين في النثر بالمفعول به[٣٨].

وهذا دليل على سلامة ما ذهب إليه نحاة المدينة في هذه المسألة.

٣- ضمير الفصل:

قد يقع الضمير المنفصل المرفوع بين المبتدأ والخبر أو ما في حكمهما من النواسخ إذا كانا معرفتين أو مقاربين للمعرفة[٢٩]، وذلك في نحو **{إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقّ}**[٣٠] و**{كُنَّا نَحْنُ الوَارِثِين}**[٣١].

ويسمى هذا الضمير عند البصريين ضمير الفصل، ويسميه الكوفيون عمادا.

وللمدنيين مذهب فيه وفي تسميته، قال أبو حيان: "والفصل هو صيغة ضمير منفصل، ويسميه الفراء وأكثر الكوفيين عماداً، وبعض الكوفيين يسميه دعامة، ويسميه المدنيون صفة.

وأكثر النحاة يذهب إلى أنه حرف، وصححه ابن عصفور. وذهب الخليل إلى أنه ضمير باق على اسميته، ومحل هذا الفصل المبتدأ والخبر ونواسخه، واختلفوا في وقوعه بين الحال وصاحبها، فمنعه الجمهور، وحكى الأخفش في الأوسط مجيء ذلك عن العرب، ومن قرأ **{هَؤلاءِ بَنَاتي هُنّ أَطْهَرَ لَكُمْ}**[٣٢] بنصب أطهر لاحِنٌ عند أبي عمرو.

وقال الخليل: والله إنه لعظيم جعل أهل المدينة هذا فصلاً، وشرط الفصل أن يتقدمه معرفة[٣٣].

وبهذا ندرك انفراد نحاة المدينة في هذه المسألة بأمرين:

أحدهما: تسميتهم هذا الضمير: صفة.

والآخر: أنهم أجازوا وقوعه بين الحال وصاحبها كما في القراءة السابقة، وندرك - أيضاً - أن الأخفش أجاز ذلك، فهل هو متأثر بما وقع له من مصنفات أهل المدينة في النحو، ككتاب عليّ الجمل؟.

لا يستبعد ذلك.

وأجاز المدنيون وقوع ضمير الفصل بين النكرة والمعرفة، قال سيبويه في باب "هذا باب لا تكون هو وأخواتها فيه فصلا" بعد أن مثل له بقوله: ما أظن أحداً هو خير منك، قال: "وأما أهل المدينة فينزلون هو هاهنا بمنزلته بين المعرفة، ويجعلونها فصلاً في هذا الموضع"[٣٤].

وأضاف سيبويه قائلا: "فزعم يونس أن أبا عمرو رآه لحنا وقال احتبى ابن مروان[٣٥] في ذِه في اللحن. يقول: لحن، وهو رجل من أهل المدينة، كما تقول اشتمل بالخطأ، وذلك أنه قرأ: **{هَؤلاءِ بَنَاتي هُنّ أَطْهَرَ لَكُمْ}** فنصب.

وكان الخليل يقول: "والله إنه لعظيم جعلهم [أي المدنيين] هو فصلا في المعرفة وتصييرهم إياها بمنزلة (ما) إذا كانت ما لغوا؛ لأن هو بمنزلة أبوهُ، ولكنهم جعلوها في ذلك الموضع لغواً كما جعلوا ما في بعض المواضع بمنزلة ليس، وإنما قياسها أن تكون بمنزلة كأنما وإنما"[٣٦].

واعترض السيرافيّ على سيبويه في بعض ما جاء في هذه المسألة، ووجه مذهب المدنيين، فقال: "لم يجز الفصل إذا كان الاسم قبله نكرة، لأن الفصل يجري مجرى صفة المضمر، وهو، وأخواتها معارف، فلا يجوز أن يكون فصلا للنكرة، كما لا يجوز أن تكون المعارف صفات للنكرة، فإن هذا الكلام إذا حمل على ظاهره فهو غلط وسهو؛ لأن أهل المدينة لم يحك عنهم إنزال هو في النكرة منزلتها في المعرفة، والذي يحكى عنهم: هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم، لأنه من باب هو خيراً منكم، والذي أنكره سيبويه أن يجعل ما أظن أحدا هو خيراً منك بمنزلة ما أظن زيداً هو خيراً منك، فليس هذا مما حُكِيَ عن أهل المدينة في شيء، وقد شهد بما ذكرته ما ذكره يونس أن أبا عمرو رآه لحنا"[٣٧].

---

٢٦ سورة إبراهيم: الآية ٤٧، وينظر: الكشاف ٣٨٤/٢، والمحرر الوجيز ٢٦٦/٨، والبحر المحيط ٢٤٤/٥، والدر المصون ١٢٩/٧.

٢٧ ينظر: الإنصاف ٢/ ٤٢٧- ٤٣١.

٢٨ ينظر: نظرية النحو القرآني ٧٨.

٢٩ ينظر: شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ٦٥/٢.

٣٠ سورة الأنفال: الآية ٣٢.

٣١ سورة المائدة: الآية ١٢٠.

٣٢سورة هود: الآية ٧٨.

٣٣ الارتشاف ٤٨٩/١.

٣٤ الكتاب ٣٩٥/٢، ٣٩٦.

٣٥ هو محمد بن مروان المدني المقرئ، كما تقدم في ترجمته في الفصل الثالث.

٣٦ الكتاب ٣٩٦/٢، ٣٩٧.

٣٧ شرح كتاب سيبويه للسيرافي، الجزء الثاني، اللوحة ١٦٦ ب (عارف حكمت).

وفي كتاب سيبويه إشارات أخرى متفرقة إلى نحويين يفهم من سياق كلامه أنهم قدماء[٣٨]، فهل هم أو بعضهم من نحاة المدينة؟.

٤- إعراب حتّى وما بعدها:

ثمة شاهد نحويّ مشهور يتناقله النحاة منذ عهد سيبويه، ويروونه عن بعض نحاة المدينة، وهو مروان بن سعيد المهلبيّ، وهو قوله:

أَلْقَى الصَّحِيفَةَ كَي يُخَفِّفَ رَحْلَهُ والزَّادَ حَتَّى نَعْلَهُ أَلْقَاهَا[٣٩]

وفيه روايات، وهي "حتى نعلِه" و"حتى نعلَه" و"حتى نعلُه"[٤٠] ولا ندري كيف أنشده مروان بن سعيد المهلبيّ، ولا نعرف رأيه في توجيهه، كما لا نعرف رأي معاصريه من نحاة المدينة في توجيه هذا البيت، الذي نقدّر أنه استأثر بعنايتهم، فهو من شواهدهم، كما استأثر بعناية النحاة في البصرة والكوفة وغيرها من الأمصار.

والشاهد فيه "حتى نعله" إذ يجوز في حتى وما بعدها ثلاثة أوجه، وقد أنشده سيبويه[٤١] على أن حتى فيه حرف جر بمعنى إلى، وأن مجرورها غاية لما قبلها، كأنه قال ألقى الصحيفة والزاد وما معه من المتاع حتى انتهى الإلقاء إلى النعل، ويكون "ألقاها" توكيد[٤٢]، وهي بمنزلة قوله عز و جل **{سَلامٌ هِيَ حَتى مَطْلَعِ الفَجْرِ}**[٤٣].

أما النصب فمن وجهين:

أحدهما: نصبه بإضمار فعل يفسره (ألقاها) كأنه قال: حتى ألقى نعله ألقاها، كما يقال في الواو وغيرها من حروف العطف.

ثانيها: أن يكون نصبه بالعطف على الصحيفة، وحتى بمعنى الواو، كأنه قال: ألقى الصحيفة حتى نعله، يريد: ونعله، كما تقول: أكلت السمكة حتى رأسَها، بنصب رأسها، فعلى هذا الهاءُ عائدة على النعل أو الصحيفة، وألقاها تكرير وتوكيد"[٤٤]وقد جاز عطف نعله مع أنه ليس واحداً مما ذكر؛ لأن الصحيفة والزاد في معنى ألقى ما يثقله؛ فالنعل بعض ما يُثقل.

وأما الرفع "فعلى الابتداء، وجملة ألقاها هي الخبر؛ فحتى - على هذا وعلى الوجه الأول من وجهي النصب - حرف ابتداء، والجملة بعدها مستأنفه"[٤٥].

هذا ما وقفت عليه مما عزي للمدنيين من آراء في النحو وهو من القلة بحيث لا يمكّن الباحث من استخلاص خصائص معينة، وإن كنت أرى - من خلال ما سمحت به المصادر - أن نحوهم يأخذ طابع النحو الكوفيّ الذي يعتدّ بالسماع ولا يحفل كثيراً بالقياس.

النّحو في قراءاتهم وتعليقاتهم التفسيرية

أسهمت قراءات المدنيين وتعليقاتهم التفسيرية في خصوبة النحو العربيّ على مدى القرون، ويمكن لنا أن نستعرض بعض الملاحظات والآراء أو الأصول النحوية المستنبطة من قراءات بعضهم أو تعليقاتهم، كابن عباس وابن هرمز، من غير استقراء، فإن ما أثر عنهما في هذا الشأن شيء غير قليل، يحتاج إلى مؤلف خاص يلم شتاته، ويكفي في هذا البحوث ذكر بعض الأمثلة مما يمثل بدايات النحو عند المدنيين.

أولا: ابن عباس

أثر عن ابن عباس كثير من الملاحظات اللغوية التي كان يفسر بها القرآن، تدل على حسه اللغويّ العام السليم، وإلمامه بالنحو.

١- قدر ابن عباس التقديم والتأخير في قوله عزّ وجلّ: **{أم لَهُم ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دونِنا لا يَسْتَطيعُونَ نَصْرَ أنفسهم ولاهُم مِنّا يُصْحَبون }**[٤٦].

قال أبو حيان: " قال ابن عباس: في الكلام تقديم وتأخير تقديره: أم لهم آلهة من دوننا تمنعهم[٤٧]".

٢- وروي عن ابن عباس في قوله عزّوجل: **{وَجَعَلنَا مِنْهُم أئِمّةً يَهْدُون بأمْرنا لَمّا صَبَرُوا}**[٤٨] أنه يرى أن الباء في **{بأمرنا}** بمعنى (إلى) أي يهدون الخَلق إلى أمرنا[٤٩].

---

٣٨ ينظر: الكتاب ٣٣٤/١، ١٨٥/٢.
٣٩ ينظر: الكتاب ٩٧/١، وأسرار العربية ٢٦٩، وشرح المفصل لابن يعيش ١٩/٨، ورصف المباني ٢٥٨، وشرح الأشموني ٢١٤/٢، والهمع ٢٤/٢، والخزانة ٢١/٣.
٤٠ ينظر: أسرار العربية ٢٦٩.
٤١ ينظر: الكتاب ٩٧/١.
٤٢ ينظر: التصريح ١٤١/٢.
٤٣ سورة القدر: الآية ٥.
٤٤ الخزانة ٢١/٣.
٤٥ نفسه ٢٢/٣.
٤٦ سورة الأنبياء: الآية ٤٣.
٤٧ البحر المحيط ٣١٤/٦.
٤٨ سورة السجدة: الآية ٢٤.
٤٩ ينظر: تنوير المقياس ٢٥٨.

وقد ذكر النحاة - فيما بعد - أن الباء تأتي بمعنى الغاية، ومنه قوله تعالى: **{وَقَدْ أحْسَنَ بِي}**[50] أي: إلي[51].

٣- وروي عنه في قوله تعالى: **{قُلْ إنْ كَان للرحمن وَلَدٌ فَأنَا أوّلُ العَبدِين}**[52] أنه يرى أن (إنْ) هنا نافية بمعنى ما، وكان يقول: لم يكن للرحمن ولد[53].

٤- وروي عنه في قوله تعالى: **{هَلْ أتَى عَلَى الإنْسَان حِينٌ مِنَ الدَّهْر لم يَكُن شَيْئاً مَذكُورا}**[54] أنه ذهب إلى أن (هل) هنا بمعنى (قد)[55].

٥- واختلف المفسرون في تفسير قوله عزّ وجلّ: **{إلَيهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصالحُ يَرْفَعُهُ }**[56].

قال أبو حيان: "وعن ابن عباس: "والعمل الصالح يرفعه، عامله ويشرّفه، فجعله على حذف مضاف"[57] أي: العمل الصالح يرفع الكلم الطّيب.

٦- واختلفوا في تفسير قوله تعالى: **{إنْ أنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأرْضِ فَأصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ المَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ}**[58].

وروي عن ابن عباس - في هذه الآية - أنه قدر حذف الحال، إذ قال: "في الكلام محذوف تقديره: فأصابتكم مصيبة الموت وقد استشهدتموهما على الإيصاء"[59] والحال هي جملة: "وقد استشهدتموهما" التي قدرها ابن عباس محذوفة.

٧- وروي عن ابن عباس في تفسيره في قول الله عزّ وجلّ: **{وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الّتي كُنْتَ عَلَيها إلاّ لِنَعْلَمَ مَن يَتّبِعُ الرّسُولَ مِمّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ}**[60] أنه قال: "القبلة في الآية الكعبة، وكنت أنت، كقوله تعالى **{كُنْتُم خَيْرَ أمةٍ}** بمعنى: أنتم"[61].

قال أبو حيان: "وهذا من ابن عباس - إن صح - تفسير معنى لا تفسير إعراب، لأنه يؤول إلى زيادة كان الرافعة للاسم والناصبة للخبر، وهذا لم يذهب إليه أحد، وإنما تفسير الإعراب على هذا التقدير ما نقله النحويون أنّ كان تكون بمعنى صار"[62].

ومقتضى تفسير ابن عباس أنّ كان هنا زائدة "والذي صار بأبي حيان إلى هذا هو البناء النحوي العام القائم على العامل والمعمول، وهذا ما لم يكن يعرفه ابن عباس، ولا أهل زمانه"[63].

ونلاحظ في هذه الأمثلة التي أوردناها بروز الحس اللغوي والنحوي عند ابن عباس في تعليقاته وتفسيره على نحو فطريّ بعيد عن تصنع النحاة وتعليقاتهم، وهو ما يناسب تلك المرحلة التي نشأ فيها النحو في المدينة والحجاز.

ثانيا: ابن هرمز

رأينا في الفصل الثالث أن بعض المؤرخين ذكر أنّ ابن هرمز أول من وضع علم النحو وأظهره في المدينة، وأنه كان أعلم الناس بالنحو وأن أهل المدينة أخذوا النحو عنه[64].

وجعله بعضهم أحد مؤسسي النحو الذين وضعوا "للنحو أبوابا، وأصلوا له أصولا، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضاف"[65].

فأين هذه الأصول والأبواب ؟ لقد ضاعت فيما ضاع من تراث العربية المتقدم، ولم يبق لنا من نحو ابن هرمز سوى قراءاته واختياراته الكثيرة التي أسهمت في خصوبة النحو العربي، ودلّت على إلمامه به، ومشاركته فيه، وإدراكه لبعض أصوله، فمن قراءاته واختياراته تلك:

١- قرأ يحيى بن يعمر: **{أفَحُكمُ الجَاهِلِيّةِ يَبْغُونَ }**[66] برفع (أفحكم) على الابتداء، و بإضمار مفعول في الفعل يبغون، والجملة خبر المبتدأ.

---

٥٠ سورة يوسف: الآية ١٠٠.

٥١ ينظر: الجنى الداني ٤٥، ومغني اللبيب ١٤٣.

٥٢ سورة الزخرف: الآية ٨١.

٥٣ ينظر: إعراب القرآن للنحاس ١٢٢/٤.

٥٤ سورة الإنسان: الآية١.

٥٥.ينظر: البحر المحيط ٣٩٣/٨.

٥٦ سورة الفاطر:الآية ١٠.

٥٧ ينظر: البحر المحيط ٣٠٤/٧.

٥٨ سورة المائدة: الآية ١٠٦.

٥٩ البحر المحيط ٤٣/٤.

٦٠ سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٦١ البحر المحيط ٤٢٣/١، ٤٢٤.

٦٢ نفسه ٤٢٣/١، ٤٢٤.

٦٣ ابن عباس مؤسس علم العربية ٥٦.

٦٤ ينظر: إنباه الرواة ٣٩/١.

٦٥ طبقات النحويين واللغويين ١١، ١٢.

٦٦ سورة المائدة: الآية ٥٠.

وقرأ ابن هرمز الآية بنصب (أفحكمَ) وهي قراءة الجمهور[٦٧]، وقال: "لا أعرف في العربية: أفحكمَ"[٦٨] فدل هذا على سعة إطلاعه، وعلمه بتراكيب اللغة وقرائنها اللفظية، وما يصاحبها من ظواهر الإعراب[٦٩].

٢- قرأ ابن كثير وغيره: **{فَتَلَقَّى آدَمَ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٌ}**[٧٠] بنصب (آدم) ورفع (كلمات).

وقرأها ابن هرمز الأعرج وغيره برفع آدم ونصب (كلمات) وعللها مكيّ بقوله: "وعلة من قرأ برفع (آدم) ونصب (كلمات) أنه جعل (آدم) هو الذي تلقى الكلمات؛ لأنه هو الذي قَبِلها ودعا بها، وعمل بها فتاب الله عليه. فهو الفاعل لقبوله الكلمات فالمعنى على ذلك، وهو الخطاب، وفي تقديم (آدم) على الكلمات تقويه أنه الفاعل.

وقد قال أبو عبيد في معنى: **{فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَبِّهِ كَلِمَاتٍ}** معناه قَبلها، فإذا كان آدم قابلا فالكلام مقبول، فهو المفعول وآدم الفاعل[٧١]".

وقرأ الأعرج وآخرون: **{وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}**[٧٢] وقرأ الجماعة **{وَيَتُوبُ اللَّهُ}** بالرفع، وعلى قراءة الأعرج فإنّ التوبة داخلة في جواب الشرط معنى، وعلى قراءة الرفع تكون استئنافاً، وذلك أن قوله: **{قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ}**[٧٣] فهو كقولك: إن تزرني أحسن إليك وأعطي زيداً درهما، فتنصبه على إضمار (أنْ) أي: إن تزرني أجمع بين الإحسان إليك والإعطاء لزيد[٧٤].

وإن كان ابن هرمز في كثير من قراءاته يتوخى بحسه النحويّ ما وافق العربية وفق الأقيسة النحوية المشهورة، إلا أنه قد يغرب في بعض قراءاته وينحط في بعض اختياراته، فيوافق أوجه ضعيفة في اللغة أو شاذة لا يقبلها أكثر النحاة، فمن ذلك:

١- قرأ ابن هرمز وغيره: **{ولا تتبعوا خُطُؤات الشَّيْطَانِ}**[٧٥] بضمتين وهمزة، وهي شاذة، أنكرها بعض العلماء، قال ابن جني: "وهي مرفوضة وغلط[٧٦]".

وتحتمل هذه القراءة تأويلين في العربية:

أحدهما: أن خُطُؤات جمع خُطأة، بمعنى الخطأ[٧٧] ، فالهمزة أصلية، وهي لام الكلمة.

والآخر: أنه قلب الواو في خُطُوات همزة ؛ لمجاورتها الضمة قبلها، فكأنها عليها؛ لأن حركة الحرف بين يديه على الأرجح لا عليه[٧٨].

٢- قرأ ابن هرمز[٧٩]: **{وإذ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُم مِن كِتَابٍ وحِكْمَةٍ}**[٨٠] بفتح اللام وتشديد الميم في (لمّا) وقد أنكرها بعض العلماء، وهي تحتمل أوجه:

قال أبو الفتح: "في هذه القراءة إعراب، وليست(لما) هاهنا بمعروفة في اللغة، وذلك أنها على أوجه:

تكون حرفاً جازما

وتكون ظرفاً

وتكون بمعنى إلا

وأقرب ما فيه أن يكون أراد: وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمِن ما آتيناكم، وهو يريد القراءة العامة: لما آتيناكم[٨١] فزاد من... فصارت (لَمِما) فلما التقت ثلاث ميمات فثقلت حذفت الأولى منهن، فبقي لَمّا مشدداً كما ترى، ولو فكت لصارت: لنما، غير أن النون أدغمت في الميم كما يجب في ذلك، فصارت: لَمّا"[٨٢].

٣- وقرأ ابن هرمز وغيره[٨٣] **{قلْ هَلْ أنبئكُم بِشَرٍّ مِن ذَلِكَ مَثْوبَةٍ عِند اللَّهِ}**[٨٤] بسكون الثّاء

---

٦٧ البحر المحيط ٥٠٥/٣.

٦٨ المحتسب ٢١١/١.

٦٩ ينظر: المفصل في تاريخ النحو ١٢٥.

٧٠ سورة البقرة: الآية ٣٧.

٧١ الكشف ٢٣٧/١.

٧٢ سورة التوبة: الآية ١٥.

٧٣ سورة التوبة: الآية ١٤،١٥ .

٧٤ ينظر: المحتسب ٢٨٥/١.

٧٥ سورة البقرة: الآية ا٦٨.

٧٦ المحتسب ١١٧/١.

٧٧ نفسه ٢٣٣/١.

٧٨ ينظر: الدر المصون ٢٢٤/٢.

٧٩ ينظر: المحتسب ١٦٤/١.

٨٠ سورة آل عمران: الآية ٨١.

٨١ أي في لَمَا خاصة كما لا يخفى.

٨٢ المحتسب ١٦٤/١.

٨٣ ينظر: مختصر في شواذ القرآن من كتاب البديع ٣٣

في (مَثْوبة) وفتح الواو على زنة مفعلة، هذا مما خرج عن أصله، وهو شاذ في بابه، وحال نظائره كما يقول ابن جني[٨٥]، وقياسها (مثوبة)كما قرأها الجمهور.

المصطلح النّحويّ

مرت مصطلحات اللغة والنحو بمراحل زمنية متباينة واشترك في تطويرها مجموعة من النحاة على مختلف العصور.

وقد ظهرت بعض المصطلحات النحوية في ظهور النشأة لهذا العلم في المدينة، ثم أشاد البصريون بناء المصطلح اللغوي بعامة والنحويّ بخاصّة، وجاء بعدهم الكوفيون، وتبعهم البغداديون والأندلسيون والمصريون، فدرس من مصطلحات المدنيين ما درس، وبقي منها ما بقي وهو قليل، ولا نعلم مقدار ما ضاع منها.

ونقدر أن بعضاً من مصطلحات المدنيين النحوية شاع على ألسنة الدارسين وتبنته المدارس النحوية المشهورة، فنسب إليها، ونسي مورده الأصلي.

ومن مصطلحات المدنيين النحوية التي أنشؤوها أو كان لهم إسهام مع غيرهم في نشأتها ورسوخها: العربية، والإعراب، والنحو، واللحن، والرفع، والنصب، والجر، والاسم، والفعل، والحرف، والنداء، والترخيم، والتقديم، والتأخير، والصفة، وهي على النحو التالي:

١- العربية:

لعل "العربية" من أقدم مصطلحات العلم اللغوي والنحوي عند العرب، وهو عام المدلول، لا يحمل - في أول أمره - سمة المصطلح العلمي الدقيق، وكان ظهوره - فيما نعلم - في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقد جرى على لسانه كثيراً، واستخدمه بعض الصحابة، وكان معناه في بادئ الأمر :لغة العرب النقية من الشوائب، لاسيما لغة البوادي، قال عمر: "تعلموا العربية، فإنها تشبب العقل وتزيد في المروءة"[٨٦].

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري: "أنْ مُرْ من قِبَلَك بتعلم العربية، فإنها تدل على صواب الكلام"[٨٧].

ثم ارتقى مصطلح العربية قليلاً وأصبح يعني اللغة وأسرارها، فقد روي عن كعب الأحبار أنه حكم بين ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهم حين اختلفا في قوله تعالى **{عَيْنٍ حَمِئَةٍ}** فقال: "أما العربية فأنتم أعلم بها، وأما أنا فأجد الشمس في التوراة تغرب في ماء وطين"[٨٨].

ولم يزل هذا المصطلح يرتقي حتى أصبح يطلق على دراسة اللغة وما تحويه من ظواهر صوتية، كالهمز والإمالة والإبدال والإدغام، أو ظواهر إعرابية كالرفع والنصب والجر، وازداد رسوخاً وانتشاراً في القرن الأول[٨٩]، فظهر أول مصطلح لهذا العلم اللغوي.

وقد ورد هذا المصطلح في استخدامات بعض القدماء، كابن سلام، في قوله: "وكان أبو الأسود أول من استنّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها ووضع القياس"[٩٠].

والسيرافي في كلامه عن نصر بن عاصم، إذ قال: إنه "أول من وضع العربية"[٩١].

والزهري في قوله: "إن نصر بن عاصم ليفلق بالعربية تفليقا"[٩٢].

والحسن البصري الذي قال له البتّي: ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة؟ فقال: إنّ هذا يعرّب الناس "أي يعلم العربية" وهو يقول رُعِف، إنما هو رَعَفَ[٩٣].

٢- الإعراب:

وهو - أيضاً - من المصطلحات العربية القديمة، تمتد جذوره إلى عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد روي أبو هريرة عن النبي عليه السلام أنه قال: "أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه"[٩٤].

وروي عن أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما-: "تعلم إعراب القرآن أحبّ إلينا من تعلم حروفه[٩٥]"

ولم يكن مصطلح "الإعراب" في بداية نشأته كما يتضح من هذين النصين يتجاوز معنى الإبانة في الكلام والتجويد في القرآن ونحو ذلك، فمدلوله أقرب إلى معناه اللغوي المجرد.

ثم تطور مصطلح "الإعراب" وأصبح يدل على الصواب في الكلام، قال ابن شُبرمة (١٤٤هـ): "إن الرجل ليلحن وعليه الخز الأدكن فكأن عليه أخلاقاً، ويعرب وعليه أخلاق فكأن عليه الخز

---

٨٤ سورة المائدة: الآية ٦٠.

٨٥ ينظر: المحتسب ٢١٣/١.

٨٦ طبقات النحويين واللغويين ١٣،و ينظر:٢٢/١.

٨٧ إيضاح الوقف والابتداء ٣٠/١.

٨٨ غاية النهاية ٣٠٣/٢.

٨٩ ابن عباس مؤسس علم العربية ٤٤.

٩٠ طبقات فحول الشعراء١٢/١.

٩١ أخبار النحويين البصريين ٣٨.

٩٢ نزهة الألباء٢٣.

٩٣ ينظر: اللسان (عرب) ٥٨٩/١.

٩٤ إيضاح الوقف والابتداء٣٠/١.

٩٥ الإيضاح في علل النحو ٩٦.

الأدكن"[٩٦].

ثم لم يلبث هذا المصطلح أن أخذ مفهوماً مقارباً لما نعرفه اليوم، وهو تحريك أواخر الكلم بما يقتضيه التركيب، وقد روي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة قوله: "الإعراب حلي اللسان؛ فلا تمنعوا ألسنتكم حليها"[٩٧].

٣-النحو:

ليس من اليسير الاهتداء إلى الزمن الذي ظهر فيه هذا المصطلح، الذي عرف ناضجاً في أواخر القرن الثاني، إلا أن الروايات المنقولة تشير إلى مرحلة مبكرة ترجع إلى زمن علي بن أبي طالب إذ رُويَ أنه - رضي الله عنه - ألقى إلى أبي الأسود رقعة فيها كلام في أصول النحو فقال له: "انح هذا النحو، وأضف إليه ما وقع لك"[٩٨] ثم عرض عليه أبو الأسود ما وقع له فاستحسنه علي وقال: "ما أحسن هذا النحو الذي نحوته"[٩٩] قال ياقوت معلقاً على قول علي: "فلذلك سمي نحواً"[١٠٠].

وقال الخليل بن أحمد: "و بلغنا أن أبا الأسود وضع وجوه العربية، فقال للناس انحوا نحو هذا فسمّى نحواً"[١٠١].

وروى القفطي أن أبا الأسود أتى عبد الله بن عباس فقال: "إني أرى ألسنة العرب قد فسدت، فأردت أن أضع شيئا لهم يقوِّمون به ألسنتهم قال: لعلك تريد النحو، أما إنه حق"[١٠٢].

فإن صحّ ما ورد في هذه الروايات فإنّ مصطلح النحو قديم تعود جذوره الأولى إلى علماء المدينة، تم تطور مع الأيام، ولكن ثمة من يشك فيما جاء في هذه الروايات، و يرى أن ذلك من تفسير الرواة وتزيدهم "لأن المصطلح اللغوي لا يسلك سبيله إلى الأذهان بهذه الطريقة، بل يكون له أساس من الاستخدام، ثم يتطور معناه ويطلق على شيء ما"[١٠٣].

٤- اللحن:

للحن معان عدة في اللغة ذكرها أصحاب المعاجم، وهو من المصطلحات التي أطلقت قديماً على علم النحو، ولكنه لم يشع في الاستعمال، فمن ذلك ما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في حديث له في النافع من العلوم، قال: "تعلموا الفرائض والسنة واللحن، كما تتعلمون القرآن"[١٠٤].

وحدّث يزيد بن هارون بهذا الأثر فقيل له: ما اللحن؟ فقال: النحو[١٠٥].

ثم شاع على ألسنة الناس في الصدر الأول من الإسلام في المدينة وغيرها استخدام اللحن بمعنى الخطأ، وهو من معانيه اللغوية، "وأغلب الظن أنه استعمل لأول مرة بهذا المعنى عندما تنبه العرب بعد اختلاطهم بالأعاجم إلى فرق ما بين التعبير الصحيح والتعبير الملحون"[١٠٦].

ومن أقدم النصوص التي ورد فيها اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ما نسب إلى عبد الملك بن مروان (٨٦ هـ) وهو قوله: "الإعراب جمال للوضيع، واللحن هجنة على الشريف"[١٠٧].

وقيل له يوماً: "أسرع إليك الشيب قال: شيبني صعود المنابر والخوف من اللحن"[١٠٨].

وقد ورد هذا المعنى في بيت للحكم بن عبدل الأسدى يهجو به حاجب عبد الملك بن بشير بن مروان والي البصرة (١٠٣ هـ) ليحمل الأمير على إقالته:

لَيْتَ الأميرَ أَطَاعَنِي فَشَفَيْتُهُ ... مِن كُلِّ من يُكْفِي القَصِيد ويَلْحَن[١٠٩]

وكان بعض السلف يقول: "ربما دعوت فلحنت فأخاف ألا يستجاب لي"[١١٠] وهكذا استقرّ اللّحن في اصطلاح اللّغويين والنّحاة على هذا المعنَى.

٥- الرفع والنصب والجر:

جاء في بعض الروايات أن علياً - رضي الله عنه - قال لأبي الأسود: "اجعل للناس حروفا -

---

٩٦ طبقات النحويين واللغويين ١٣.
٩٧ نفسه ١٣.
٩٨ معجم الأدباء ١٤٦٧/٤.
٩٩ نفسه ١٤٦٧/٤.
١٠٠ نفسه ١٤٦٧/٤.
١٠١ العين ٣٠٢/٣.
١٠٢ إنباه الرواة ٥١/١.
١٠٣ المفصل في تاريخ النحو العربي ١٥.
١٠٤ طبقات النحويين واللغويين١٣، والإيضاح الوقف والابتداء ا/١٥ ، ١٦.
١٠٥ الأضداد للأنباري ٢٤٠.
١٠٦ العربية ٢٥٤.
١٠٧ العقد الفريد ٤٧٩/٢.
١٠٨ الفخري في الآداب السلطانية ١١٢/٥.
١٠٩ الحيوان٢٤٩/١.
١١٠ الإيضاح في علل النحو ٩٦.

وأشار له إلى الرفع والنصب والجر - فكان أبو الأسود ضنينا بما أخذه"[111].

تم انشر هذا المصطلح عند النحويين واللغويين في القرن الثاني، ولا يبعد أن يكون المدنيون قد عرفوه منذ القرن الأول، وأن يكون لهم دور بارز في نشأته.

٦-الاسم والفعل والحرف:

روى عن أبي الأسود أنه قال: "دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام- فأخرج لي رقعة فيها: الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لمعنى"[112].

وروى الزجاجي أن أبا الأسود كان أول من سطر في كتاب: "الكلام: اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فسئل عن ذلك فقال: أخذته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب"[113].

٧- النداء والترخيم:

روي أن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما قرأ: **{ونَادَوا يا مَالِ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ}**[114] أنكر عليه ابن عباس - رضي الله عنهما - فقال علي: "هذا من الترخيم في النداء. فقال ابن عباس: ما أشغل أهل النار في النار عن الترخيم في النداء فقال علي: صدقت"[115].

قال ياقوت في تعليقه على هذه الرواية: "فهذا يدل على تحقّق الصحابة بالنحو وعلمهم به"[116].

ومع أن الشك يتطرق لهذا الرواية لورود مصطلح "الترخيم في النداء" فيها، إذ يظن أنه مصطلح متأخر نوعاً ما، إلا إننا لا نستطيع إنكارها لورودها عن ياقوت، ومعروف عنه تحريه فيما يرويه من الأخبار، ولأن الواقع اللغوي الجديد في عصر علي بن أبي طالب كان مهيئاً لنشأة مثل تلك المصطلحات، ويقوي ذلك مكَانة الرجلين علي وابن عباس في اللغة، وما أثر عنهما في هذا الشأن، وهو شيء كثير.

٨- التقديم والتأخير:

فسر ابن عباس قوله عز وجل **{ أم لَهُم ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِن دونِنَا لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أنْفُسِهِم ولاهُم مِنّا يُصحَبُون }**[117] فقال: "في الكلام تقديم وتأخير"[118].

٩- الصفة:

تقدم في كلامنا عن الضمير الذي يقع بين المبتدأ والخبر وما في حكمها أنه يسمى عند البصريين ضمير الفصل.

ويسمى عند الكوفيين: العماد.

ويسميه نحاة المدينة - كما ذكر أبو حيان - صفة، وقد انفردوا بهذه التسمية فيما نعلم.

المجالس اللغوية

من مظاهر النشاط اللغوي في المدينة أن العلماء كانوا يعقدون المجالس اللغوية كما عقدوها للتفسير والحديث والفقه، ومن المجالس التي كانت تعقد للغة مجالس ابن عباس، وأبي الزناد، وابن هرمز، ومروان بن سعيد المهلبي وغيرهم.

وكانت العلوم الشرعية واللغوية تتداخل في تلك المجالس، قال عمرو بن دينار: "ما رأيت مجلساً قط أجمع لكل خير من مجلس ابن عباس للحلال، والحرام، وتفسير القرآن، والعربية، والشعر، والطعام"[119].

ونقدر أن علم العربية بفروعه المختلفة كغريب اللغة ولهجاتها ومسائل النحو كان يعرض في تلك المجالس.

ولما ارتقت علوم اللغة وقاربت النضج و بخاصة النحو ظهرت بعض المناظرات اللغوية والنحوية في تلك المجالس، أو في مجالس علية القوم كالخلفاء والأمراء[120]والوزراء وغيرهم، كان ذلك في

---

١١١ مراتب النحويين ٢٤.

١١٢ إنباه الرواة ١/٤٠.

١١٣ الإيضاح في علل النحو ٨٩.

١١٤ سورة الزخرف: الآية٧٧ .

١١٥ معجم الأدباء١/١٧.

١١٦ نفسه ١/١٧.

١١٧ سورة الأنبياء: الآية ٤٣.

١١٨ البحر المحيط ٦/ ٣١٤.

١١٩ غاية النهاية ١/٤٢٦.

١٢٠ من مجالس الأمراء في المدينة ما كان يقع في القرن الرابع في مجلس أميرها أبي أحمد العلوي العقيقي، ومن ذلك مسألة لغوية دار الحوار فيها في مجلسه سنة ٣٦٤ هـ وهي مسألة مدّ المقصور في كلمة "الغني" فقال بعضهم يجوز المدّ فيها فيقال. "الغناء" واستدل بقول الشاعر:

سيغنيني الّذي أغناك عني فلا فقر يدوم ولا غناء

فرد أبو الليل العلوي هذا الشاهد بأن روايته خلاف هذا، وأن الصّواب هو:

سيغنيني الّذي أغناك عنّي فلا فقري يدوم ولا غناك
تجنبت الذنوب لتصرميني دعى العلات واتّبعي هواك

حواضر الدولة الإسلامية الفتية كالمدينة والبصرة والكوفة وبغداد.

وقد ضاع كثير من تلك المناظرات، ولم يبلغنا من أمرها إلا القليل، وأكثر ما بلغنا مما كان يدور في مجالس الخلفاء و الأمراء والوزراء في حواضر العراق، وقد جاءت لنا بعض المصادر بنتف يسيرة جدا من مناظرات نحوية وقعت في بعض مجالس العلم كان أحد علماء المدينة طرفا فيها، وهو مروان بن سعيد المهلبي، وكان الطرف الآخر سعيد بن مسعدة الأخفش.

وفيما يلي مجالس المهلبي مما ذكره أبو القاسم الزجاجي وغيره، وهي ثلاثة مجالس، نوردها كما رواها الرواة، تم نقفوها بشيءٍ من التعليق:

١- فإن كانتا اثنتين:

قال أبو القاسم الزجاجي. "قال أبو يعلى زكريا بن يحي بن خلاد: حدثني أبو عثمان قال: سأل مروان الأخفش عن قول الله جلّ وعزّ: **{ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ }**[١٢١] أليس خبر كان يفيد معنى ليس في اسمها؟ قال نعم. قال: فأخبرني عن **{كَانَتَا اثْنَتَيْنِ }** أليس قد أفاد بقوله (كانتا) معنى ما أراد فلم يحتج إلى الخبر؟ فقال: إنما أراد: فإن كان من ترك اثنتين، ثم أضمر (من) على معناها. قال: فبإضماره (من) على معناها أفاد معنى ما أراد"[١٢٢].

وأراد مروان بن سعيد المهلبي بسؤاله أن الألف في (كانتا) تفيد التثنية فلأي معنى فسر ضمير المثنى بالاثنتين و نحن نعلم أنه لا يجوز أن يقال: فإن كانتا ثلاثا، و لا أن يقال فإن كانتا خمساً، فأراد الأخفش أن الخبر أفاد العدد المجرد من الصفة، أي: قد كان يجوز أن يقال: فإن كانتا صغيرتين أو صالحتين فلهما كذا، وإن كانتا كبيرتين فلهما كذا، فلما قال: فإن كانتا اثنتين على أية صفة كانتا عليها من كبر أو صغر أو صلاح أو طلاح أو غنى أو فْقر، فقد تحصل من الخبر فائدة لم تحصل من ضمير المثنى[١٢٣].

وبهذا ظهر ذكاء السائل وبراعة المسؤول.

٢- أزيد عندك أم عمرو؟

قال الزجاجي: "سأل مروان [بن سعيد المهلبي] مرة الأخفش، فقال: إذا قلت: أزيد عندك أم عمرو، أفليس قد علمت أن ثمّ كونا ثابتا، ولكن لا تدري من أيهما هو؟ قال: بلى. قال: فإذا قلت: قد علمت أزيد عندك أم عمرو، أفليس قد علمت ما جهلت؟ قال: بلى. قال: فلم جئت بالاستفهام؟ قال: جئت به لألبس على المخبر مَن علمت. فقال له مروان: إذا قلت علمتُ من أنت، أردت أن تلبس عليه لأنه لا يعلم نفسه؟ قال: فسكت.

قال أبو عثمان: عندي أنه إذا قلت قد علمت من أنت فهو لا يريد أن يُلبس عليه؛ لأنه لا يعرف نفسه، ولكنه أراد قد علمت من أنت أخير أمرك أم شر، كما تقول: قد علمت أمرك، وكقولك: ما أعرفني بك، أي قد علمت ما تذكر به، أو ما تثلب به"[١٢٤].

٣- أزيد ضربته أم عمرًا:

قال الزجاجي: "أخبر أبو جعفر أحمد بن محمد الطبري، قال: سأل مروان سعيد بن مسعدة الأخفش: أزيداً ضربته أم عمرا؟ فقال:[١٢٥] أي شيء تختاره فيه؟ فقال: أختار النصب لمجيء ألف الاستفهام. فقال: ألست إنما تختار في الاسم النصب إذا كان المستفهم عنه الفعل كقولك: أزيداً ضربته، أعبد الله مررت به؟ فقال: بلى. فقال له: فأنت إذا قلت: أزيدا ضربته أم عمراً، فالفعل قد استقرّ عندك أنه قد كان، وإنما تستفهم عن غيره، وهو من وقع به الفعل، فالاختيار الرفع؛ لأن المسؤول عنه اسم وليس بفعل. فقال له الأخفش: هذا هو القياس.

قال أبو عثمان: وهو أيضا ًالقياس عندي، ولكنّ النحويين اجتمعوا على اختيار النصب في هذا لما كان معه حرف الاستفهام الذي هو في الأصل للفعل"[١٢٦].

نعم؛ ويمكن أن نخرج من هذه المناظرات الثلاث بما يلي:

أولا: دقة المهلبي فيما أثاره من قضايا نحوية، وظهوره ندًّا قوياً لعَلَمٍ مشهور من أعلام النحو العربي، وهو الأخفش.

ثانياً: اقتصار المهلبي في مناظراته على الأخفش.

ثالثاً: جهلنا بمكان تلك المناظرات، فقد تكون وقعت في العراق، وقد تكون في المدينة، وشهرة المجالس اللغوية في العراق ترجح أن تكون هذه المناظرات الثلاث مما كان يدور هناك في حواضر العراق، وصلة الأخفش ببعض علماء المدينة كعلي الجمل على النحو الذي وضحناه فيما سبق تجعلنا نميل إلى أنها كانت في المدينة، والذي يرجح هذا الاحتمال أنها لو كانت في العراق لما اقتصر مروان بن سعيد المهلبي على مناظرة الأخفش دون غيره من علماء العراق،

ينظر: شذرات الذهب للغزّاوي ١٤٣.

١٢١ سورة النساء: الآية ١٧٦.

١٢٢ مجالس العلماء٦١.

١٢٣ ينظر: نزهة الألباء١٠٩، ودرة الغواص ٣٧.

١٢٤ مجالس العلماء٦٧.

١٢٥ القائل هو: مروان.

١٢٦ مجالس العلماء٢٤٨، وينظر: الأشباه والنظائر ٣/ ٩٢، ٩٣.

وهم كثر.
ومن هنا يمكن القول: إن صلة الأخفش بالمدنيين قد تكون مما يفسر به خروج الأخفش عن منهج جماعته البصريين في كثير من مسائل النحو.

من مسائل اللغة

أشرنا فيما مضى إلى أن علوم العربية نشأت مختلطة في القرنين الأول والثاني بين فروعها قبل أن يعرف المتأخرون من علومها النحو والصرف والدلالة والمعجم وفقه اللغة.

إن علم اللغة في جوانب الدلالة والمعجم نشأ مبكراً في المدينة في ظلال علوم القرآن كالتفسير على يد ابن عباس الذي يعد صنيعه بحق نواة المعجم العربي وطليعته، فقد برع في شرح غريب القرآن الكريم في مفرداته وتراكيبه، كما ظهر ذلك فيما روي عنه في كتب التفسير وفيما جاء في سؤالات نافع بن الأزرق، وكذلك في صحيفة علي بن أبي طلحة، وبرع - أيضاً - في تمييز ما وقع في القرآن من لغات القبائل ولغات الأمم المجاورة، وهو ما يسمى بالمعرب.

و قد ورد عن ابن عباس في مجالات شرح المفردات، وتمييز لغات القبائل، والإحاطة بالمعرب الشيء الكثير.

أولاً: شرح المفردات:

يتناول ابن عباس - في الغالب - كلمة غريبة من آية فيشرحها بما لا يزيد على كلمة أو كلمتين، ولو جمع ما أثر عن ابن عباس في هذا الشأن لكوّن معجماً صالحاً؛ وفيما يلي نماذج من الشرح اللغوي للمفردات عنده:

١- الرَّغَد:

قال ابن عباس في تفسير قوله عز وجل:**{وَكُلا مِنْهَا رَغَدَاً}**[١٢٧] الرغد: الهنيء[١٢٨].

٢- الإصر:

قال في تفسير قوله تعالى: **{رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً }**[١٢٩]: إصراً: عهداً[١٣٠] لا نفي به، ونقلها عنه أصحاب المعاجم[١٣١].

٣- الدِّهاق:

قال ابن عباس في تفسير قوله عز وجل: **{كأسا دِهَاقاً }**[١٣٢] دهاقاً: ملأى[١٣٣]. وروى عنه الطبري أنه قال لغلامه: اسقني دهاقاً، فجاء بها الغلام ملأى، فقال ابن عباس: هذا الدهاق[١٣٤].

ويبدو أن ابن عباس أراد أن يؤكد هذا المعنى للرّدّ على من كان يخالفه، إذ ذهب بعضهم إلى أن الدهاق في الآية ليس من الامتلاء، وإنما من التتابع[١٣٥]، من الدَّهق الذي هو متابعة الشدّ، والمعنى الأولى أعرف كما قال ابن منظور[١٣٦].

وأكثر اللغويين على ما ذهب إليه ابن عباس[١٣٧].

٤- الحُزْن والغَضَب:

سئل ابن عباس عن الحزن والغضب فقال: غرضهما واحد واللفظ مختلف فمن نازعَ من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً، ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حُزْناً وجزعا[١٣٨].

٥- المثبور:

روي عن ابن عباس في تفسير كلمة "مثبور" في قوله تعالى: **{إِنّي لأَظُنُّكَ يا فِرعَون مَثْبوراً}**[١٣٩] ثلاثة أقوال:

أحدها: أن مثبوراً بمعنى ملعون[١٤٠].

والثاني: أنه بمعنى مغلوب[١٤١].

والثالث: أنه بمعنى ناقص العقل، ونقصان العقل أعظم هُلْكٍ[١٤٢].

---

١٢٧ سورة البقرة: الآية ٣٥.
١٢٨ ينظر. جامع البيان ٢٦٨/١.
١٢٩ سورة البقرة: الآية ٢٨٦.
١٣٠ ينظر: جامع البيان ١٥٧/٣.
١٣١ ينظر: اللسان (أصر) ٢٢/٤.
١٣٢ سورة النبأ: الآية ٣٤.
١٣٣ جامع البيان ٤١١/١٢.
١٣٤ نفسه ٤١١/١٢.
١٣٥ ينظر: عمدة الحفاظ (دهق) ١٨٠.
١٣٦ ينظر: اللسان (دهق) ١٠٦/١٠.
١٣٧ ينظر: مجاز القرآن ٢٨٣/٢، ومعاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٧٥/٥.
١٣٨ ينظر المفردات (أسف) ٧٥ ، وعمدة الحفاظ (أسف) ١٦.
١٣٩ سورة الإسراء: الآية ١٠٢.
١٤٠ ينظر: جامع البيان ١٥٩/٨.
١٤١ نفسه١٥٩/٨.
١٤٢ المفردات (ثبر) ١٧٢.

٦- المترف:

روي عن ابن عباس أنه فسر "المترفين " في قوله عز وجل: **{ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين }**[١٤٣] بأن المراد منه هو التوسع في نعيم الدنيا.

وذهب أبو عبيدة وجماعة إلى أنه بمعنى: متكبرين[١٤٤].

ووافق أكثر العلماء[١٤٥] ابن عباس.

ولما كان الشعر ديوان العرب، ومنتهى حكمهم، به يأخذون، وإليه يصيرون ؛ فقد جعل ابن عباس الشعر دليلا على كثير من شروحه اللغوية، وكان يحث على الاستفادة من الشعر في مقام شرح الغريب، فقد روي عنه قوله: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرفُ من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديواننا فالتمسنا معرفة ذلك منه"[١٤٦] وروي عنه قوله- أيضاً: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"[١٤٧].

وقد ظهرت عناية ابن عباس بالشعر واستفادته منه في سؤالات نافع بن الأزرق التي أوردها السيوطي كاملة في كتابه (الإتقان)[١٤٨].

ثانيًا: لغات القبائل:

روي عن ابن عباس فيما يتصل بلغات القبائل شيء غير قليل، وأقواله منثورة في كتب التراث وعلى رأسها كتب التفسير والمعاجم. وثمة رسالة برواية ابن حسنون ينتهي سندها إلى ابن عباس وصلت إلينا بعنوان "اللغات في القرآن " تشتمل على بعض لغات القبائل وشيء من المعرب.

وقد شك بعض العلماء في نسبتها إليه - كما تقدم في الحديث عن مؤلفات "العربية" عند علماء المدينة، إلا أن الراجح عند كثير من العلماء أنها له، لورود كثير مما فيها من نصوص في كتب التراث، ولنقل السيوطي جل ما فيها معزواً في كتابيه: "المهذب" و"الإتقان".

فمما روي عن ابن عباس في لغات القبائل:

١- قال ابن عباس في قوله عز وجل: **{واضمم إليك جناحك من الرهب}**[١٤٩] الجناح اليد، والرهب الكم بلغة بني حنيفة[١٥٠].

قال مقاتل: "خرجت ألتمس تفسير الرهب، فلقيت أعرابية وأنا آكل، فقالت: يا عبد الله؛ تصدق عليّ، فملأت كفي لأدفعَ إليها، فقالت: ههنا في رهبي، أي: كمّي"[١٥١].

وروي عن الأصمعي أنه سمع أعرابياً يقول لآخر: أعطني رهبك، فسأله عن الرهب فقال: الكمّ[١٥٢] فهذان النصان يؤيدان ما ذهب إليه ابن عباس.

وذهب أكثر العلماء[١٥٣] في تفسير "الرهب" في هذه الآية إلى أنه بمعنى الرهبة.

٢- روى السيوطي عن أبي بكر الأنباري أن ابن عباس كان يذهب إلى أن الوَزَر: ولد الولد بلغة هذيل[١٥٤]. ولم أجد لهذا المعنى أي أثر فيما اطلعت عليه من المعاجم وكتب التراث.

والمشهور عن ابن عباس أنه فسر "الوراء" بولد الولد في قوله عز وجل: **{ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحق يعقوب}**[١٥٥] وأنه استفاد ذلك من رجل من هذيل سمعه يقول: مات فلان وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء[١٥٦].

٣- روى الفراء عن ابن عباس أنه قال في قول الله تعالى: **{وكنتم قوماً بوراً}**[١٥٧] البور في لغة أزد عمان: الفاسد[١٥٨]. والذي في كتاب "اللغات في القرآن" المنسوب لابن عباس هو أنّ "قوماً بوراً يعني هلكى بلغة عمان "[١٥٩] والمعنيان متقاربان، لأن الفساد قد يؤدي إلى الهلاك في بعض الأمور.

---

١٤٣ سورة الواقعة: الآية ٤٥.
١٤٤ ينظر: مجاز القرآن ٢٥١/٢، والجامع لأحكام القرآن ٢١٣/١٧.
١٤٥ ينظر: معاني القرآن للفراء١٢٧/٣ ، وإعراب القرآن للنحاس ٣٣١/٣، واللسان (ترف) ١٧/٩.
١٤٦ الإتقان ١٥٧/١.
١٤٧ نفسه ١٥٧/l.
١٤٨ ١٥٨/١-١٧٥.
١٤٩ سورة القصص: الآية ٣٢.
١٥٠ اللغات في القرآن ٣٨.
١٥١ المفردات (رهب) ٣٦٦.
١٥٢ ينظر: الجامع لأحكام القرآن ٢٨٥/١٣.
١٥٣ ينظر: جامع البيان ٧٠/١٠ ، وتهذيب اللّغة (رهب) ٢٩٢/٦، وعمدة الحفاظ (رهب) ٢١١.
١٥٤ ينظر: الإتقان ١٧٥/١، ولغة هذيل ٤٢٣.
١٥٥ سورة هود. الآية ٧١.
١٥٦ ينظر: إيضاح الوقف والابتداء٧٣/١، وفتح القدير ٥١٢/٢.
١٥٧ سورة الفتح الآية ١٢.
١٥٨ ينظر: معاني القرآن للفراء ٢٠٠/٢.
١٥٩ اللغات في القرآن ٣٧.

٤- سئل ابن عباس عن معنى "يفتنكم" في قوله عزّ وجلّ: **{وإذَا ضَرَبْتُم في الأَرْض فَلَيس عَلَيْكُم جُنَاحٌ أن تَقْصُرُوا مِن الصَّلوة إن خِفتمْ أن يَفْتِنَكُم الَّذينَ كَفَرُوا}**[١٦٠] فقال: يضلكم بالعذاب والجهد بلغة هوازن، أما سمعت قول الشاعر:

كل امرئ مِن عِباد الله مُضْطهَدٍ   ببَطْنِ مَكّة مقهورٌ ومفتون[١٦١]

والذي في "اللغات في القرآن " أن معنى **{فتنُوا الْمؤْمِنينَ والمؤْمِنَات}**[١٦٢] أخرجوهم بلغة القريش[١٦٣].

ثالثا: المعرب:

يعد ابن عباس من أقدم القائلين بوقوع المعرب في القرآن الكريم[١٦٤] و نقل عنه أئمة اللغة والتفسير الشيء الكثير في ذلك[١٦٥] وفي رسالة "اللغات في القرآن" المنسوبة إليه قدر صالح من المعرب يشير إليه بـ "التوافُق" كقوله: وافقت لغة العرب لغة الفرس أو الحبشة ونحو ذلك.

وفيما يلي نماذج مختصرة مما أثر عن ابن عباس في المعرب:

١- روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: **{ فرّت مِن قسْوَرَة}**[١٦٦] فقال: هو بالعربية الأسد، وبالفارسية شار، وبالنبطية أريا، و بالحبشية قسورة[١٦٧].

٢- قال في: **{يَكنْ لَهُ كِفْلٌ مِنها}**[١٦٨] الكفل: النصيب، وهي بلغة وافقت النبطية، مثل قوله عز وجل: **{ يُؤْتِكُم كِفْلَين مِن رَحْمَتِه}**[١٦٩] يعني نصيبين بلغة وافقت النبطية[١٧٠].

٣ - روي عنه أنه قال: إن **{ هَيْتَ لَكَ }**[١٧١] بمعنى هلمّ لك بالقبطية[١٧٢].

٤- أخرج ابن جرير الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: **{ فَصُرْهُنّ إلَيْكَ }**[١٧٣] أنه قال: هي بالنبطية: فشققهن[١٧٤].

وأخرج ابن جرير - أيضاً - عن الضحاك أن "صرهن" بالنبطية "صرّى" وهو التشقيق[١٧٥]. وقيل هي عربية من "الصور"[١٧٦] وهو الميل.

٥- قال إن "الإستبرق " هو الديباج الغليظ، بلغة توافق لغة الفرس[١٧٧] وقد ذكر كثير من العلماء أنه معرب "إستفره" أو "إستبره "[١٧٨] أو "إستروه "[١٧٩].

مسائل لغوية متفرقة

ثمة مسال متفرقة في اللّغة كنشأة اللغة، والاشتقاق، والأضداد، والسكت؛ معزوة لبعض علماء المدينة كابن عباس و مروان بن سعيد المهلبي، وغيرهما، فمن ذلك:

١- نشأة اللغة الإنسانية:

للعلماء أربع نظريات مشهورة في نشأة اللّغة ومنها نظرية التوقيف أو الإلهام، وهي تتلخص في أن الله سبحانه وتعالى، لما خلق الأشياء، ألهم آدم عليه السلام، أن يضع لها أسماء فوضعها.

ويستدل أصحاب هذا المذهب من علماء العرب بقوله تعالى: **{وعَلَّم آدمَ الأسْمَاءَ كُلَّها، ثُمّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَة}**[١٨٠] فكان ابن عباس يقول فيما رواه عنه ابن جرير الطبري: "علم الله آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر

---

١٦٠ سورة النساء: الآية ١٠.
١٦١ ينظرْ الإتقان ١٦٩/١.
١٦٢ سورة البروج: الآية ١٠.
١٦٣ ينظر: اللغات في القرآن ٥٣
١٦٤ ينظر: المهذب ١٩٢.
١٦٥ ينظر: جامع البيان ٣١/١.
١٦٦ سورة المدثر: الآية ٥١.
١٦٧ ينظر: جامع البيان ٣١/١، وقصد السبيل ١٠٥/١.
١٦٨ سورة النساء: الآية ٨٥ .
١٦٩ سورة الحديد: الآية ٢٨.
١٧٠ ينظر: اللغات في القرآن ٢٢.
١٧١ سورة يوسف: الآية ٢٣.
١٧٢ ينظر: الإتقان ١٨٣/١.
١٧٣ سورة البقرة: الآية:٢٦٠.
١٧٤ ينظر جامع البيان ٥٥/٣.
١٧٥ نفسه ٥٦/٣.
١٧٦ نفسه ٥٧/٣ .
١٧٧ ينظر: اللغات في القرآن ٣٣.
١٧٨ ينظر: المعرب ١٠، والمهذب ١٩٩، والمعجم الذهبي ٦٦.
١٧٩ ينظر: قصد السبيل ١٧٧/١.
١٨٠ سورة البقرة: الآية ٣١.

وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها"[181].
وقد اختار جماعة من علماء العربية هذا المذهب، واستدلوا بما استدلّ به ابن عباس، ومن هؤلاء أبو عليّ الفارسي[182] وابن فارس[183].

٢- الاشتقاق:

يعد الاشتقاق في العربية من أبرز سماتها، وقد مكنها من التوليد والتوسع في الألفاظ حتى غدت العربية من أغنى اللغات في الألفاظ.
ولابن عباس رأي في اشتقاق بعض الكلمات، لقد أورد السيوطي عن ابن عباس: "أنه دخل على معاوية، وعنده عمرو بن العاص، فقال عمرو: إن قريشاً تزعم أنك أعلمها؛ فلم سميت قريش قريشا؟ قال: [ابن عباس]: بأمر بيّن، فسره لنا. ففسره، قال: هل قال أحد فيه شعراً؟ قال: نعم سمّيت قريش بدابة في البحر. وقد قال المشمرج بن عمرو الحميري:

وقريش هي التي تسكن البحر ... بها سميت قريش قريشا
تأكل الغثّ والسمين ولا ... تترك فيه لذي الجناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلا كميشا
ولهم آخر الزمان نبيّ ... يكثر القتل فيهم والخموشا
تملأ الأرضَ خيلةً ورجالٌ ... يحشرون المَطيّ حشراً كشيشا

وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن أبي ريحانة العامري قال: قال معاوية لابن عباس: لم سميت قريش قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر من أعظم دوابه، يقال لها القرش، لا تمر بشيء من الغث والسمين إلا أكلته، قال: فأنشدني في ذلك شيئاً، فأنشده شعر الحميري، فذكر الأبيات"[184].
وقيل: سميت بذلك لتقرّشها، أي: تجمّعها إلى مكة من حواليها بعد تفرقها في البلاد حين غلب عليها قصيّ بن كلاب، وقيل سميت بذلك لتَجْرها وتكسبها وضربها في البلاد ابتغاء الرزق[185].
واختلف العلماء في اشتقاق كلمة "الناس" أو "الإنسان" فذهب بعضهم إلى أنها من "الإنس" وأصله "أناس" فحذفت فاؤه تخفيفاً، وجعلت ألف (فُعال) عوضاً عن الهمزة[186]. فمادته (أن س).
وذهب بعضهم إلى أنه من "النّوس" وهي الحركة، وأن المحذوف العين، وأصله، "نَوَس" فقلبت الواو ألفاً، لتحركها وانفتاح ما قبله [187] فمادته (ن و س).
وقال قوم: أصل الإنسان إنسيان على (إفعلان)، فحذفت الياء استخفافاً، لكثرة ما يجري على ألسنتهم، فإذا صغروه ردّوا الياء؛ لأن التصغير يرد الأشياء إلى أصولها. قال الجوهري: "واستدلوا عليه بقول ابن عباس - رضي الله عنه - أنه قال: إنما سمّي إنساناً لأنه عهد إليه فنسي"[188].
وعلى قول ابن عباس فإن الناس - أيضاً - من نسي، ثم حدث فيه قلب بتقديم اللام إلى موضع العين، وتأخير العين إلى موضع اللام؛ فصار "نيساً" فقلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها.

٣- الأضداد:

يقصد بالأضداد في اصطلاح اللغويين الكلمات التي تؤدي إلى معنيين متضادين بلفظ واحد، ككلمة "الجون" تطلق على الأبيض والأسود.
ومن الأضداد كلمة "السامد" فهي تدل على اللاهي، الحزين، ولأحد نحاة المدينة رأي فيها، وهو محمد بن مروان المدني (١٩٥ ه تقريباً).
قال أبو حاتم السجستاني: "وحكوا عن ابن مروان، قال: السامد الحزين في كلام طيء واللاهي في كلام اليمن، وأما الذي في القرآن[189] فلا علم لي به"[190].
وقال أبو الطيب اللغوي: "ويحكي عن ابن مروان نحويّ أهل المدينة من خزاعة الغبشان أنه قال: السامد: الحزين من كَلام طيىء، واللاهي من كلام سائر أهل اليمن "[191].

٤- هاء السكت:

---

١٨١ جامع البيان ٢٥٢/١.
١٨٢ ينظر الخصائص ٤٠/١.
١٨٣ ينظر: الصاحبي ٦.
١٨٤ المزهر ٣٤٤/١- ٣٤٥ .
١٨٥ ينظر: اللسان (قرش) ٣٣٥/٦.
١٨٦ ينظر: الكتاب ١٩٦/٢، ٤٥٧/٣، والتاج (أنس) ٩٩/٤.
١٨٧ ينظر: أمالي ابن الشجري ١٢/٢، والدر المصون ١١٩/١.
١٨٨ الصحاح (أنس) ٩٠٥/٣.
١٨٩ إشارة إلى قوله عز وجل {وَأَنْتُم سَمِدُون} سورة النجم: الآية ٦١.
١٩٠ الأضداد ١٤٤ (ضمن ثلاثة كتب في الأضداد).
١٩١ الأضداد ٣٧١/١.

من خصائص الوقف في العربية اجتلاب هاء السكت، ولها ثلاثة مواضع معروفة، منها كلّ مبني على حركة بناء دائماً، ولم يُشبه المعرب كياء المتكلم، نحو"كتابي" ومنه في القرآن: **{مَالِيَه}**[192] و**{سُلْطَانِيَه}**[193].

وقد احتج بعض علماء المدينة المغمورين بما ورد من هذا في القرآن الكريم حين خطأه أبو عمرو بن العلاء. قال الزجاجي: "حدثنا أبو هِفّان قال: قال مصعب الزبيري: أنشد رجل من أهل المدينة أبا عمرو بن العلاء قول ابن قيس:

إنّ الحَوَادثَ بالمَدِينَةِ قَدْ أَوْجَعْنَنِي وقَرَعْنَ مَرْوَتِيَه[194]

فانتهره أبو عمرو، وقال: مالنا ولهذا الشعر الرّخو، إنّ هذه الهاء لم تدخل في شيء من الكلام إلا أرخته.

فقال المدني: قاتلك الله، ما أجهلك بكلام العرب، قال الله جل وعز في كتابه: **{مَا أَغنَى عَنّي مَالِيَه هَلَكَ عَنّي سُلْطَانِيَه}** و**{يَا لَيْتَنِي لَم أُوْتَ كِتَابِيَه ولم أدر مَا حِسَابِيَه}**، وتعييه؟ فانكسر أبو عمرو انكساراً شديدا"[195].

ويدل ردّ هذا المدني المغمور على أبي عمرو بن العلاء، واحتجاجه بما جاء في القرآن في تلك المسألة اللغوية، وقوله بثقة لأبي عمرو: "ما أجهلك بكلام العرب" يدل ذلك كلّه على أن ذلك الرجل كان على قدر من العلم باللغة في المدينة إن لم يكن من علماء اللّغة فيها، وإن كنا لا نعرف اسمه، وقد تبين لنا من خلال هذا البحث أن ما نجهله من أمر علماء اللّغة والنحو في المدينة هو أكثر مما نعرفه عنهم.

الخاتمة

تبيّن من خلال هذا البحث أن بذرة الدراسات اللغوية العربية لغة ونحواً كانت في المدينة، منذ وقت مبكر في عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من أمراء بني أمية، لعوامل ساعدت على نشأة هذه العلوم، ومن أبرزها:

١- ظهور اللحن وانتشاره.

٢- حماية القرآن من اللحن.

٣- محاولة فهم القرآن ودرسه.

وأرى أن الدرس اللغوي والنحوي بخاصة لا يعزى في وضعه لعالم بعينه، إنما هو جملة من الأنظار والملحوظات والإرشادات اللغوية التي أثارها جماعة من التابعين وأصحاب الذائقة اللغوية الرفيعة من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم، فأسهموا جميعاً - بدرجات متفاوتة - في إرساء الأسس النحوية الأولى في المدينة، ثم انتشرت هذه الملحوظات والأنظار، وتداولها المهتمون بالعربية في الأمصار، كالبصرة في بادئ الأمر ثم الكوفة، فكانت هذه الملحوظات النواة للنحو العربي الذي نضج في أواخر القرن الثاني.

وكان لبعض الشخصيات قدم راسخة في إرساء الأساس لبنيان العربية الشامخ، كعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وأبي الأسود الدؤلي، وابن عباس - رضي الله عنهما - ونصر بن عاصم الليثي وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج المدني، وكان اشتهارهم في هذا الفن مع تقدم زمانهم مدعاة لأن يرفع الرواة والمؤرخون من شأنهم وينسبوا إليهم وضع العربية والنحو بخاصة.

وقد أهمل أمر اللغويين والنحاة في المدينة، وضاع كثير من نتاجهم وآرائهم وملحوظاتهم لأسباب بيّنتها، تتلخص في انشغال المسلمين في صدر الإسلام بأخبار الحرب وأنباء الفتوح التي كانت تتوالى على المدينة صباح مساء، ثم أدّى انتقال مركز الخلافة إلى دمشق أيام الأمويين، ثم بغداد أيام العباسيين - إلى صرف الأنظار عن المدينة وتركّزها على مراكز الخلافة الجديدة، فأهمل المؤرخون وأصحاب الطبقات كثيرا من نواحي الحياة في المدينة ومنها أخبار العلم والعلماء.

ولم تزل المدينة تبتعد شيئاً فشيئاً عن دوائر الضوء وتنزوي بين جبال الحجاز ورمال الصحراء في جزيرة العرب، حتى خرجت ومعها جزيرة العرب بكاملها من اهتمامات المؤرخين وأصحاب الطبقات، فليس ثمة ما يغري المؤرخين، أو يجبرهم على الخوض في شؤون تلك البقاع سوى ما يتصل بالحج، وأخبار بعض الخوارج والقرامطة.

وهكذا يمكن القول: إن اللغة والنحو وأربابهما في المدينة مما طُويَ عنا أمره، فلا نعرف اليوم من أعلام العربية أو عنهم إلا القليل ؛ مما يمكن أن يجمع في قبضة يد واحدة من تراث لغوي مفقود.

وقد وفقت - بعد طول بحث في المظان المختلفة - على جملة من أولئك الأعلام في المدينة، وتعرفت على شيء يسير من تراثهم اللغوي الضائع، ومن هؤلاء: علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومسلم بن جندب الهزلي، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وعبد الله بن ذكوان

---

١٩٢ سورة الحاقة: الآية ٢٨.

١٩٣ سورة الحاقة: الآية ٢٩.

١٩٤ ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات ٩٨.

١٩٥ مجالس العلماء ١٤٤.

المعروف بأبي الزناد، وعبد العزيز القارئ الملقب بـ"بشكُسْت" وزيد بن أسلم العدوي، وعلي الجمل، والأصبغ بن عبد العزيز الليثي، ونافع بن أبي نعيم، وعيسى بن يزيد بن دأب، ومالك بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي، ومروان بن سعيد المهلبي، ومحمد بن مروان المدني، وعيسى بن مينا بن وردان.

ويبدو أنّ لنحاة المدينة ولغوييها مؤلفات مفقودة في اللغة والنحو وأنّ لهم آراءهم النحوية الخاصة، ومصطلحاتهم التي كانت تدور في بيئتهم، وأنّ لهم مجالسهم اللغوية الخاصّة.

وأمكن لهذا البحث أن يقف على بعض الشذرات النحوية المتفرقة، كتابع المنادى، والفصل بين المضاف والمضاف إليه، وضمير الفصل، وإعراب حتى وما بعدها، والنداء والترخيم، والتقديم والتأخير، والصفة.

أما علم اللغة في جوانب الدلالة والمعجم فيمكن القول إنه نشأ مبكراً في المدينة في ظلال علوم القرآن، كالتفسير على يد ابن عباس، الذي يعد صنيعه فيه نواة المعجم العربي وطليعته، فقد برع في شرح غريب القرآن، مع العناية الواضحة بلغات القبائل، ومحاولة الإحاطة بما في القرآن من المعرب.

وكان للمدنيين نشاطهم اللغوي من خلال المجالس العلمية التي كانت تعقد لشتّى العلوم كالتفسير والحديث والفقه واللغة.

وكانت العلوم الشرعية واللغوية تتداخل في تلك المجالس، ونقدّر أن علم العربية بفروعه المختلفة كغريب اللغة ولهجاتها، وأوّليات النحو كالفاعل والمفعول والمبتدأ والخبر - مما كان يعرض في تلك المجالس.

وكان للغة مجالسها الخاصة كمجالس ابن عباس وأبي الزناد وابن هرمز ومروان بن سعيد المهلبي، وغيرهم.

وأرجو - في الختام - أن يكون لهذا البحث نصيب من الإسهام في الكشف عن بدايات مجهولة لعلم العربية في عاصمة الإسلام الأولى، المدينة النبوية الشريفة.